كيف تُقرأ الكتب الفلسفية العملية (الكتب الفكرية)

عنوان مُعَبِّر للباب الثامن (34 صفحة) – الفصل الأول

من كتاب

سياسات الأمم ولعبة الأقدار

(2010 – رقم:3)

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

المراجع في هذا الفصل موجودة في صفحة المراجع في الكتاب الأصل

جميع الحقوق محفوظة

❖ كيف تقرأ هذا الكتاب

كما تم تبيانه في المقدمة فإن هذا الكتاب هو فلسفي عملي. والمقصود بفلسفي هو أن هذا الكتاب ليس رواية بوليسية ولا هو قطعة أدبية ولا هو خيال علمي. وأما عملي فمعناه أن الكتاب ليس مرجعا أكاديميا ولا هو قصة تاريخية وإنما هدف الكتاب هو بناء المهارة وتحويل الفهم إلى مفهوم. والمهارة التي يحاول هذا الكتاب بناءها هي مهارة التحليل السياسي والعمل الاستراتيجي.

وأفضل طريقة لقراءة الكتب الفلسفية العملية هو القراءة الجماعية. والجماعة ليست بحاجة لأن تكون كبيرة وإنما يكفي اثنان: أب وابنه أو شخص وأخوه أو زوج وزوجته.. إلخ.

والهدف من القراءة الجماعية هو الإبطاء من سرعة تجاوز الأفكار. وإذا لاحظت في القراءة الفردية فإن الشخص يقوم بتجاوز الكثير من الأفكار في الكتاب ويقوم بالانتباه فقط إلى الأفكار التي له فيها بعض الخبرة. وهذا هو السبب في أن البعض يقرأ أحد الكتب ثم بعد سنوات يقوم بقراءته مرة أخرى ليتفاجأ بأفكار لم يكن قد انتبه لها أول مرة. ولهذا السبب فإن القراءة الجماعية تساعد على تقوية الانتباه للأفكار والتخفيف من سرعة تجاوزها.

وطريقة القراءة الجماعية لهذا الكتاب تكون بقراءة الفقرة (أو الصفحة) ومناقشتها وضرب الأمثال لأفكارها.

وهنا نقطة انتباه:

ليس من الضروري أبدا أن يقتنع القارئ بأفكار المؤلف. وللقارئ كامل الحق في أن يرفض بعض أو جميع الأفكار في هذا الكتاب. والهدف من مناقشة الفقرة ليس الدفاع أو الهجوم على أفكار الكتاب وإنما الانتباه لأفكار الكتاب وتحديد الموقف منها.

وهدف المؤلف حقيقة هو تنبيه القارئ إلى مجموعة من الأفكار والمفاهيم. وهذه هي النقطة الجوهرية في أي عملية تعليم وهو الانتباه.

دعونا نشرح هذه النقطة وبشكل أكثر عمقا:

كان المؤلف يستغرب كثيرا من قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك].

ونقطة الاستغراب أن العلماء الآن على إدراك دقيق لقوانين الطيران وللقواعد الفيزيائية التي تسمح للطير بالسباحة في الهواء. وهذه القواعد ليست معقدة وليست معجزة. وأما قوله تعالى: "ما يمسكهن إلا الرحمن" فهي شبيهة بقوله تعالى: ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ... ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]. فكل فعل هو بأمر الله تعالى، وهذه ليست نقطة التساؤل هنا، وإنما نقطة التساؤل هي: ما هو الأمر المثير

والجوهري في قيام الطيور بفرد وقبض أجنحتهم؟ وما هو السبب في قيام القرآن بتوجيه انتباه الناس لهذه النقطة؟؟

هذا التساؤل أدى إلى نقطة انتباه:

عندما يعيش الناس قرب المطارات فإنهم لا يعودون يشعرون بضجيج الطائرات وعندما يعيش الناس قرب محطات تجميع النفايات فإنهم لا يشعرون بالروائح غير الطيبة.وهذا معناه أن للناس القدرة العالية للتأقلم مع الظروف المألوفة لديهم. ومن الطبيعي جدا عندما يأتي شخص بأفكار مخالفة تماما للمألوف أن يقوموا بمقاومته.

وإحدى الطرق لتخفيف هذه المقاومة هي دعوة العقل للانتباه إلى المألوف والتساؤل عنه. و آية الطير هي إحدى الآيات التي تدعو إلى الانتباه إلى المألوف والتساؤل عنه. فالأعراب عاشوا في الصحراء وهم يرون الطير يسبحن في الهواء. وهذا هو الأمر المألوف لديهم وأخذوه دون تساؤل. ولكن عندما يأتي من يدعوهم إلى الانتباه إلى سباحة الطير وكيف يفرد أجنحته ويقبضها في الهواء، فإن هذه هو في الواقع دعوة إلى تحريك الدولاب في العقل.

والأعرابي مهما نظر إلى الطيور وانتبه إلى حركتها فإنه لن يكون بمقدوره أن يستنتج قوانين الطيران ولا علاقة سرعة الطيران بضغط الهواء؛ وذلك لقلة المعلومات الفيزيائية فى ذلك الوقت. ولكن هذا الانتباه كفيل بتحريك الدولاب في العقل، وهذا التحريك يؤدي إلى الانتباه وتغيير النظرة إلى الأمور المألوفة الأخرى.

وهذا هو هدف المؤلف وهو تنبيه القارئ إلى مجموعة من الأفكار والمفاهيم على أمل أن يؤدي هذا الانتباه إلى تحريك الدولاب في العقل.

ولهذا السبب فإنه ليس من الضروري أن تكون جميع أفكار هذا الكتاب صحيحة، فالمؤلف ليس نبيا. ولكن فلسفة المؤلف أنه إذا تحرك الدولاب في العقل وكان عند القارئ طريقة تفكير صحيحة فإن القارئ مع الزمن سيصل إلى الصحيح أياً كان هذا الصحيح.

ولهذا السبب فإن المرحلة الأولى في قراءة الكتاب هو الانتباه.

الآن...الانتباه إلى أفكار الكتاب (أي كتاب) يتطلب أمرين:

١. الانتباه إلى المعنى اللغوى في العبارات.

٢. الانتباه إلى ما يكون المؤلفون قد قصدوه.

وهذا الموضوع يتطلب شرحا: فمؤلفو الكتب ليسوا أنبياء، ولهذا فمن الممكن جدا أن يخطئوا في اختيار الكلمات.

ومن جهة أخرى فإن الأمثال وعبارات البلاغة تتضمن الكثير من المعاني. ويتحدد المعنى المقصود في هذه العبارات من السياق.

ولهذا السبب فمن الحكمة النظر إلى عبارات البلاغة من زاويتين: الأولى وهي المعنى الظاهر من الكلمات، والثانية هي المعنى الظاهر في السياق والذي ربما يكون المؤلفون قد قصدوه.

وبمقارنة المعاني الظاهرة من الكلمات مع المعاني المفهومة من السياق نستطيع أن نصل إلى إدراك لمقصد المؤلفين بغض النظر إذا كان هذا المقصد صحيحا أو خاطئا.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه وهو أن المؤلفين ربما قد اختاروا كلماتهم بدقة (وإن ظهرت خاطئة) وأن هناك معانٍ أخرى دفينة بين السطور.

وأفضل الأمثلة هو القصة التالية:

غضب أحد الملوك من أحد الولاة وأراد به الشر. وطلب من وزيره أن يستدعيه برسالة أمان. وكتب الوزير الرسالة ولكنه أورد في نهايتها "إنّ شاء الله". وفي هذه العبارة خطأ لوجود الشَدّة فوق النون. ولكن الملاحظة كانت أن الرسالة كلها لم يكن فيها تشكيل إلا في هذه العبارة. فلماذا؟؟

وقام الوزير بإطلاع الملك على الرسالة وأقرّها الملك وأرسلها إلى الوالي. وأجاب الوالي على الرسالة بالشكر والعرفان ووعد بسرعة الحضور إلى الملك ولكنه أورد في نهاية الرسالة: إنّا الخادم المقر بالإنعام. وفي هذه العبارة خطأ وذلك لوجود الهمزة والشدّة. ولكن لم يكن هناك تشكيل في هذه الرسالة غير هذه. فلماذا؟؟

الجواب هو أن رسالة الوزير كانت تعني: ﴿...إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...﴿٢٠﴾﴾ [القصص]. وكان جواب الوالي هو: ﴿...إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَآ ...﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

وهذا هو المقصود بالانتباه إلى مقصد المؤلفين. وأحد الأساليب التي تسمح لنا بالانتباه لهذا المقصد هو مقارنة المعاني الظاهرة من الكلمات مع المعاني المفهومة من السياق.

دعونا نرجع إلى موضوع القراءة:

الهدف الأساسي من القراءة الجماعية هو الانتباه إلى الأفكار ومحاولة تبيان الغامض فيها وليس الهدف أبدا أن تتحول القراءة والنقاش إلى الجدال. وهذه نقطة جوهرية هنا وهي أنه ليس المطلوب أبدا أن يقوم شخص بإثبات أو إفحام الآخرين لأفكاره، إذ إن هذا هو بالضبط عكس الهدف من هذا الكتاب:

إن معظم أفكار هذا الكتاب تخمينية ولا يمكن إثباتها قطعا كما لا يمكن نفيها قطعا. وبالتالي فإن موضوع الجدال ومحاولة الإثبات أو الإفحام هو مضيعة للجهد والوقت. والنقطة الرئيسية المطلوبة من القراءة الجماعية هو الانتباه لأفكار الكتاب وليس الاتفاق بين الجماعة على الموقف منها. فلكل شخص الحق باختيار قناعاته وله كامل الحق بعدم الدخول في جدال فيها. والنصيحة ألا تزيد مناقشة الموضوع عن ١٠ دقائق وأي نقاش زائد عن هذه المدة فالأفضل أن يكون خارج وقت القراءة.

وللتأكيد والتكرار فإن الهدف من القراءة الجماعية هو الانتباه وليس الإقناع.

دعونا الآن نسأل التالي: لنفترض أن القارئ قد قرأ الكتاب ولم يقتنع بأفكاره فأين هي الفائدة؟؟

إذا لم يقتنع القارئ بأفكار الكتاب فهذا معناه أن عنده أفكارًا أخرى بديلة. وهذا معناه أن عملية المقارنة بين أفكار القارئ والكتاب ستؤدي إلى وضوح شديد في هذه الأفكار البديلة.

فالفائدة من قراءة هذا الكتاب (ومعظم الكتب الفلسفية العملية) هي أنها تقوم بتوضيح الأفكار عند القارئ بغض النظر إذا كانت هذه الأفكار موافقة للكتاب أو مخالفة.

وهذه هي الخطوة الثالثة في عملية التعلم. فالخطوة الأولى هى الانتباه، والخطوة الثالثة هى اتخاذ الموقف. فالقارئ بعد قراءة الكتاب سيكون عنده موقف من أفكار هذا الكتاب بغض النظر إذا كان موقفه موافقا للكتاب أو مخالفا له.

ولكن ما هي الخطوة الثانية في عملية التعلم؟؟؟

عمليات التعلم وطرق التفكير ومناهج التحليل لها خطوات كثيرة، وتختلف هذه الخطوات باختلاف الموضوع. ولكن هناك خطوتان أساسيتان فيها وهما الانتباه والتساؤل. وأما باقي الخطوات فهي ثانوية وتكاد تكون تلقائية. فالخطوة الثالثة في عملية التعلم (اتخاذ الموقف) هي عملية تلقائية وتكاد تأتي بشكل طبيعي بعد التساؤل.

وإذا أردنا اختصار عمليات التعلم في نموذج فلسفي بسيط فإننا نستطيع أن نقول إن عملية التعلم وطريقة التفكير تتطلب حركة مستمرة من الانتباه والتساؤل في ثلاثة محاور:

أ - الانتباه والتساؤل للموضوع.

ب- الانتباه والتساؤل للأخطاء والنجاحات.

جـ- الانتباه والتساؤل للكيفية بيتا.

دعونا ندخل إلى التفاصيل:

الانتباه والتساؤل للموضوع:

الأسئلة في هذا المحور متعددة وتكون مركزة على الموضوع. ومثال على طبيعة الأسئلة: أين حدث هذا الأمر، ومتى حدث، ومن هم المشاركون فيه، وكيف نجحوا في تنفيذ هذا الأمر، ولماذا أخطئوا، وما هي العبر والفوائد....إلخ.

وفي موضوع التحليل السياسي فهناك سؤالان رئيسيان، وباقي الأسئلة تكاد تكون تلقائية (أي أن الشخص سيسألها دون حاجة لتذكرها). وهذه الأسئلة هي:

لماذا حدث هذا؟

لنفترض أن .....ماذا كان سيحدث؟

دعونا نضرب المثال في غزوة الحديبية:

هل هناك هدف استراتيجي من غزوة الحديبية؟

الجواب هو نعم. وهو أن الرسول عليه السلام أراد أن يتفرغ لخيبر وهم قوة حقيقية في أطراف المدينة ولكنه لم يكن قادرا أن يفعل ذلك دون تحييد قوة قريش. ولهذا السبب فإن الهدف من غزوة الحديبية هو عمل هدنة مع قريش ليتفرغ لخيبر. وأول من انتبه لهذا الأمر هو تقي الدين النبهاني في كتابه: الدولة الإسلامية.

دعونا نضع الأحداث على خط الزمن:

* خرج الرسول عليه السلام في أحد الأشهر الحرم معتمرا نحو مكة مع ١٤٠٠ من المسلمين.
* تصدى لهم خالد بن الوليد.

* سلك الرسول عليه السلام والمسلمون طريقا وعرا غير مطروق. وعندما انتبه خالد لهذا الأمر قام بالتراجع والوقوف في وجه المسلمين في الحديبية.

* وضع الرسول عليه السلام الأنعام في المقدمة كي يعلم الجميع أنه جاء معتمرا وليس مقاتلا.

* لم يكن هناك اتحاد في قريش في موضوع مواجهة المسلمين، إذ كانت هناك قوة كبيرة في قريش (الأحابيش بقيادة الحليس بن علقمة) ترى الشرعية في رغبة المسلمين في العمرة. ولهذا السبب فقد فضلت قريش القيام بسياسة "عدم التصرف" وتجميد الأمور كما هي.

* أراد الرسول عليه السلام إرسال عمر بن الخطاب مفاوضا ولكن عمر أشار على الرسول أن يرسل عثمان بن عفان وذلك لأن عشيرة عثمان كبيرة وأما عشيرته فقليلة وربما يقتلونه.

* أرسل الرسول عليه السلام عثمان بن عفان إلى مكة.

* بسبب اتخاذ قريش لسياسة "عدم التصرف" فقد قاموا بسجن عثمان بن عفان في أحد البيوت.

* بعد أيام من إرسال عثمان وبعد عدم ظهور أي أنباء عنه فقد ظهرت إشاعة أن قريشًا قد قتلت عثمان. وعندها قام المسلمون ببيعة الرضوان تحت الشجرة للقتال.

* لم تكن قريش تريد حربا فأرسلت إلى الرسول تخبره أن عثمان على قيد الحياة.

* بدأت المفاوضات بين قريش والرسول عليه السلام.

* كانت شروط قريش غير لائقة ولكن الرسول عليه السلام وافق عليها. ولكنه وضع في آخر المفاوضات شرط المعاهدة (وهو من أراد أن يدخل في عقد الرسول وعهده فليدخل فيه ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل) ووافقت قريش

على هذا الشرط ودخلت خزاعة في عهد الرسول عليه السلام ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

* امتعض الكثير من المسلمين لشروط قريش ولكن كان هناك من الانضباط ما يكفي للإحاطة بهذا الامتعاض. وروي في الحديث عن حوار بين الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب: "فقال يا رسول الله أولسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين قال بلى قال فعلام نعطي الذلة في ديننا فقال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني" (رواه أحمد في أول مسند الكوفيين).

* رجع الرسول عليه السلام إلى المدينة وتفرغ لخيبر.

وعلى غلبة الظن فإن تصرفات الرسول عليه السلام لم تكن ضمن اجتهاداته الإدارية كقائد سياسي وإنما كانت ضمن توجيه من الله تعالى . وهذا دليله قول الرسول عليه السلام لعمر بن الخطاب. وفي الوقت نفسه فإن إنجازات الرسول عليه السلام في غزوة الحديبية لم يكن فيها معجزات ولهذا فإنها درس سماوي في الاستراتيجية.

دعونا الآن نبدأ التساؤل والتحليل:

لماذا لم يكن الرسول عليه السلام يريد الحرب ولماذا لم تكن قريشا تريد الحرب؟؟

ضمن النظرة إلى موازين القوى فإن الرسول عليه السلام وقريشًا لم يكونا يريدان الحرب للأسباب التالية:

* هدف الرسول عليه السلام كان خيبر. وإذا حارب المسلمون قريشا ولم ينتصروا فإن هذا سيمنعهم من تحقيق الهدف. وأما إذا انتصروا فإن خسائر المسلمين قد تكون كبيرة وهذا سيمنعهم كذلك من تحقيق الهدف.

* الأيام كانت من الأشهر الحرم ومن يبدأ بالقتال فإنه سيكون عرضة حقيقية لانتقاد جميع العرب.

* بالنسبة لقريش فإنها إن حاربت المسلمين وانتصرت فإنها لا تستطيع أن تضمن حجم خسائرها. وكذلك فإن انتصارها غير مضمون بسبب قوة انضباط المسلمين. ولقريش خبرة سابقة في هذا الأمر.

* وهناك نقطة في موازين القوى لصالح قريش وهي أن المهارات التكتيكية عند قريش أعلى بكثير من المهارات التكتيكية عند المسلمين فى ذلك الوقت بسبب وجود خالد بن الوليد. وبالتالي فاحتمالية عدم انتصار المسلمين في الحرب أو احتمالية الانتصار بخسائر عالية هي احتمالية عالية.

ولهذه الأسباب فلم يكن أي طرف يريد الحرب ذلك الوقت.

لماذا أذعنت قريش للمفاوضات بعد بيعة الرضوان؟؟

إذا فرضنا أن قريشا قد قتلت عثمان فهذا معناه أن قريشا قد انتهكت الأشهر الحرم وهذا معناه هو انشقاق قوة قريش عن بعضها، وهنا تكون الظروف مختلفة. ولكن حيث إن قريشا لم تقتل عثمان وهي في حقيقة الأمر لا تريد حربا فهي كانت مضطرة إلى إرسال رسول إلى المسلمين يخبرهم أن عثمان على قيد الحياة.

لماذا كان الرسول عليه السلام يريد إرسال عمر بن الخطاب؟

قريش لم تكن تريد حربا ولكنها كذلك لم تكن تريد أن يدخل المسلمون إلى مكة فكانت سياستها هي "عدم التصرف". وأراد الرسول عليه السلام إجبار قريش على فتح باب المفاوضات بقوة الإحراج. وكان عمر بن الخطاب هو الاختيار المثالي فلن يستطيع أحد من قريش الاعتداء عليه أو منعه من التوجه إلى مكة إلا إذا أشهروا سيوفهم في وجهه. وهنا فإن قريشا ستكون في خطر إشعال الحرب إن رضي عمر بن الخطاب بهذا التحدي. أما إذا أرسل الرسول عليه السلام شخصا غير عمر فربما تقف قريش في وجهه وترغمه على الرجوع أو ربما تسجنه في أحد بيوتها كما فعلت مع عثمان.

على أية حال فإن عمر بن الخطاب قد استحذر قيام قريش بالانفراد به فأشار على الرسول عليه السلام بإرسال عثمان.

هل انتبهت خيبر لمناورة المسلمين؟؟

على غلبة الظن فإن خيبر لم تنتبه إلى مناورة المسلمين. ولكن حتى وإن انتبهوا فإن اليهود كانت "قلوبهم شتى" ولهذا السبب فلم يكن عند اليهود القدرة على الاتفاق السريع للمناورة المضادة.

وهذه نقطة جوهرية. فالذكاء الجماعي عند قريش كان أعلى بكثير من الذكاء الجماعي عند خيبر. وهذا معناه أن سرعة التصرف عند قريش هي أعلى من سرعة التصرف عند خيبر. ولهذا السبب كان من الضروري تحييد قريش.

* لنفترض أن اليهود كان عندهم الذكاء الكافي للانتباه لمناورة المسلمين وكان عندهم سرعة التصرف فما هي المناورة المضادة التي كان يجب عليهم أن يقوموا بها؟

بالطبع لم يكن من السهل على اليهود تهديد المدينة إذ لا يوجد أي عذر لذلك كما لم يكن عندها الوقت الكافي لحشد التأييد من القبائل الأخرى. ولهذا فإن أفضل مناورة عندهم هي إرسال وفد رفيع المستوى إلى قريش كي يراقب الوضع هناك. وبالطبع فإنه إذا حدث هذا فإن الوفد سيكون قادرا على تمرير بعض الشروط لمصلحتهم كعدم التعرض لخيبر.

بالطبع فإنه لا يمكن الإجابة على جميع التساؤلات ولكن لا ضير من التساؤل، ومن يدري فربما يأتي لها الجواب فجأة ودون جهد.

إن نظرة المؤلف هى أن غزوة الحديبية هي درس من السماء في فن الاستراتيجية، ومن المناسب التعرض لبعض العبر والفوائد في هذه الغزوة:

أ. الذكاء في نصوص المعاهدة:

إن معاهدة الحديبية هي أفضل مثال للكيفية التي يقوم فيها القائد بالتخطيط الذكي ضد عدو من دون انتهاك لقواعد الصدق والأمانة. فقد كانت شروط قريش غير لائقة وقد وافق عليها الرسول عليه السلام دون جدال، لكنه استطاع تمرير شرط المحالفة ووافقت قريش عليه. وعلى غلبة الظن فإن الرسول عليه السلام كان يعلم تماما أن قريشًا لن تفي بهذا الشرط. وهذا ما جعل المعاهدة قصيرة الأجل إذ بعد سنتين قامت قريش بانتهاك فاضح للمعاهدة دون تقصير من المسلمين.

ب. مهارات التلميح:

كانت من شروط المعاهدة قيام الرسول عليه السلام بإرجاع المسلمين الجدد إلى قريش. وأسلم رجل (أبو بصير) وهاجر إلى المدينة ولكن وفدا قد جاء إلى الرسول وطالب به وقام الرسول عليه السلام بتسليمه لهم. وفي الطريق غافل أبو بصير الوفد وقتلهم. ورجع إلى الرسول عليه السلام وقال له: "يا نبي الله قد والله قد أوفي الله ذمتك قد رددتني إليهم وقد أنجاني الله منهم. فقال الرسول عليه السلام: ويل امه مسعر حرب لو كان له أحد (رواه البخاري). وفهمها أبو بصير والمسلمون الجدد وأخذوا يتربصون بقوافل قريش التجارية ويغيرون عليها وجاء وفد من قريش إلى الرسول عليه السلام يطلب منه إلغاء هذا الشرط في المعاهدة

انتبه الآن... قول الرسول عليه السلام لم يكن دعوة إلى القتال ضد قريش ولكنه كان تلميحا. وهو بهذا التلميح لم يقم أبدا بانتهاك قواعد المعاهدة بينه وبين قريش.

ج. موضوع الانضباط:

لقد حدث امتعاض حقيقي عند المسلمين لشروط المعاهدة. ولكن كون القائد هو رسول الله عليه السلام وكون الانضباط كان مرتفعا عند المسلمين فقد أحاط الرسول عليه السلام بهذا الامتعاض.

ولكن دعونا ننقل هذه الحادثة إلى ظروف أخرى ولنفترض أن مثل هذه المعاهدة قد تمت مع قائد غيرالرسول عليه السلام. والسؤال هو: كيف سيكون رد الفعل عند المسلمين؟

على غلبة التخمين فإن امتعاض المسلمين ذلك الوقت كان كافيًا لعمل التمرد في الجيش. وبالطبع فإن الامتعاض والتمرد ليس بسبب مخالفة لأحكام الشرع والقانون وإنما جاء الامتعاض للشعور بالهزيمة والمهانة من هذه الشروط.

وهذه هي إحدى المعضلات الكبرى في تاريخ الحضارات:

* كيف تستطيع أن تضع انضباطا حقيقيا في المجتمع تجاه القيادة وفي الوقت نفسه تستطيع أن تضع صمامات أمان تضمن أن القيادة لا تتسلط في الحكم كما أنها لا تتخذ القرارات بعشوائية وارتجال.

* كيف تستطيع أن تضع انضباطًا وإرادة حقيقية في الجيش وفي الوقت نفسه تستطيع أن تضع صمامات أمان تضمن أن قيادة الجيش لا تتصرف بعباطة وارتجال.

* كيف تستطيع أن تضع ثقة حقيقية فى الجيش تجاه القيادة وفي الوقت نفسه يكون عند القيادة حرية عالية لعمليات الكر والفر والإقدام والانسحاب دون الخوف من تمرد وامتعاض الجيش.

والنقطة الأولى ما زالت حتى هذه اللحظة هي المعضلة الكبرى في الحضارة البشرية. وأما النقطة الثانية والثالثة فقد تم وضع العلاج لها وفي كثير من الحضارات. فالجيش يجب أن يتم ترويضه وتدريبه وبشكل مستمر ومدروس على الانضباط ضمن أكثر الظروف امتعاضا ما دامت القيادة لم تخالف أحكام القانون. بمعنى أنه إذا كان الانسحاب لا يمثل مخالفة لأحكام الشرع والقانون فإن على أفراد الجيش الالتزام بالانضباط.

في المقابل فإنه يجب على أعضاء القيادة العليا في الجيش القيام وبكل أدب (ولكن بكل صراحة ووضوح) بمداولة ومحاورة ومناقشة تصرفات القائد، وهذا هو نظام

الشورى في اتخاذ القرار. بمعنى أنه داخل غرفة الحوار فإن الأمر مطروح على الطاولة وأما خارج غرفة الحوار فإن الجميع من القائد إلى الحرس ملتزمون بالانضباط في الخطة المتبناة. وهذه إحدى نتائج الذكاء الجماعي وهى أن الجماعة قد تختلف في الآراء ولكنها متحدة تماما في الطريق.

دعونا نعكس هذه الأفكار إلى معركة بلاط الشهداء بين المسلمين والفرنسيين عام ٧٣٢م. وكان الجيش الإسلامي قد استحوذ على الكثير من الغنائم قبل المعركة. وقد انتبه عبد الرحمن الغافقي إلى خطورة هذا الأمر.

والسؤال: ماذا كان الحل الأفضل لعبد الرحمن الغافقي لعلاج هذه المشكلة؟

الحل الأفضل هو القيام بحرق هذه الغنائم وإخبار الجيش أن غنائمهم موجودة خلف العدو وليس خلفهم. وهذا شبيه بحرق طارق بن زياد للسفن بعد العبور.

وبالطبع فإن قيام عبد الرحمن الغافقي بحرق الغنائم ليس مخالفا لأحكام الشرع والقانون. ولكن هذه الحركة كانت ستسبب امتعاضا حقيقيا للجيش. وربما كان هذا هو السبب في عدم قيام عبد الرحمن الغافقي بهذه الخطوة.

والذي حدث في معركة بلاط الشهداء هو أن فرقة خفيفة من العدو تمكنت من التوجه نحو خيمة الغنائم؛ لتنشق صفوف المسلمين (ودون وعي) من أجل حماية هذه الغنائم مما تسبب بالهزيمة وموت عبد الرحمن الغافقي وضياع كل هذه الغنائم.

وهذا يعطي المثال لضرورة تدريب الجيش والمجتمع على الانضباط ولكن من الضروري كذلك قيام القيادة بالالتزام بنظام الشورى لضمان أن تصرفاتها لا تتم على عباطة وارتجال.

وهناك نقطة فرعية أخرى جديرة بالذكر: فالقرآن يُقدم فرصة رائعة لتقوية حركة الانتباه والتساؤل. فعندما تقوم بقراءة أي كتاب وتنتبه إلى نقطة وتتسائل عنها فإن أحد الأجوبة قد تكون أن المؤلف أخطأ التعبير. ولكن هذا غير متحقق في القرآن

حيث إن القرآن (للمسلمين) هو كلمة الله تعالى وهي معصومة عن الخطأ. وهنا الفرصة لتقوية مهارات الانتباه والتساؤل عن طريق قراءة القرآن.

دعونا نضرب الأمثال:

لماذا استخدم الله تعالى لفظة "مطلع الشمس" بدلا من "مشرق الشمس" في قصة ذي القرنين؟

لماذا استخدم الله تعالى أسلوب "قل" في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب]، ولكنه قام باستخدام الأسلوب المباشر في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب]؟

لماذا استخدم الله تعالى كلمة "شرقيا" في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم]؟

ما المعنى في اختلافات أقوال صاحب موسي: ففي أمر السفينة قال: ﴿... فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ... ٧٩﴾ (أي أن الإرادة كانت منه) وفي قتل الغلام قال: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا ... ٨١﴾ (أي أن الإرادة كانت لجماعة) وفي بناء الحائط قال: ﴿...فَأَرَادَ رَبُّكَ ... ٨٢﴾ [الكهف]؟

كان السبب في اعتراض موسى على السفينة أنه نسي وهذا صريح في النص. وأما السبب في اعتراض موسى على قتل الغلام فهو الغضب وهذا من السهل استنتاجه من النص. ولكن ما هو السبب في اعتراض موسى على بناء الحائط؟

لقد كان سؤال زكريا عليه السلام ومريم عليها السلام متشابها وهو كيف يكون لهما ولد ولكن الجواب كان مختلفا، ففي حالة زكريا كان الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم].

وفي حالة مريم كان الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم]. فلماذا الاختلاف؟

لماذا طلب يعقوب عليه السلام من أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة في الرحلة الثانية إلى مصر مع أنه لم يطلبها منهم في الرحلة الأولى؟

بالطبع فإن الأسئلة السابقة جوهرية ولكن انتبه هنا:

المؤلف لا يطلب من القارئ أن يقوم بقراءة آيات القرآن (ولكن مثلا سورة الإخلاص) ويقوم بالتساؤل: لماذا قال الله تعالى "قل" ولماذا قال "هو" ولماذا اختار الله تعالى لفظة "الله أحد" ولماذا اختار لفظة "الصمد؟

فهذا الأسلوب من التساؤل هو التساؤل الآلي دون انتباه. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن التساؤل الآلي في الكثير من الأحيان يكون مضيعة للوقت والجهد.

والأمر الطبيعي هو أن يكون التساؤل بعد الانتباه وليس قبله. والانتباه له أكثر من زاوية ولكن أهمها أربعة:

* الانتباه لنقاط التشابه والاختلاف.
* الانتباه للأمور خارج السياق.
* الانتباه للأمور غير الموجودة في السياق.
* الانتباه للأمور الخارجة عن المألوف.

ورجوعا إلى الأمثلة السابقة فقد استخدم الله لفظة "مشارق" في بعض الآيات ولكن في آيات ذي القرنين فقد استخدم لفظة "مطلع الشمس" وهنا كان الانتباه وهو الانتباه إلى أمر خارج السياق.

وأما بالنسبة إلى لفظة "قل" فالموضوع يتحدث عن حكم شرعي ولكن في الكثير من الأحيان فإن الأحكام الشرعية جاءت بخطاب مباشر وفي بعض

الأحيان جاء الخطاب بأسلوب "قل" وهنا كان الانتباه وهو الانتباه إلى نقاط التشابه والاختلاف.

بالنسبة إلى لفظة "شرقيا" فإن القصة القرآنية لم تتحدث عن مكان ولادة عيسى عليه السلام ولم يكن هناك أي إشارة في النصوص عن مكان ولادة عيسى عليه السلام ولكن كلمة شرقيا هي كلمة تتعلق بالاتجاهات. وهنا جاء الانتباه وهو الانتباه لأمر خارج عن السياق.

بالنسبة إلى آيات صاحب موسى في قول الله تعالى "فأردت" و"فأردنا" و"فأراد ربك" فإن نقطة الانتباه هو التشابه والاختلاف في الفعل "يريد". ففي الأولى كانت "أردت" والثانية كانت "أردنا" والثالثة كانت "أراد ربك" وهنا جاء الانتباه.

بالنسبة إلى سبب تعليقات موسى عليه السلام للخضر فإن السبب الأول كان واضحا في النص ولكن لم يرد في النصوص اللاحقة أية إشارات للسبب وهنا كان الانتباه.

بالنسبة إلى الجواب في تساؤل زكريا ومريم عليهما السلام فإن الانتباه جاء نتيجة لتشابه الأسئلة واختلاف الأجوبة.

بالنسبة إلى طلب يعقوب عليه السلام فقد جاء الانتباه بسبب أن هذا الطلب خارج عن المألوف ولأن يعقوب لم يطلب هذا الأمر في الرحلة السابقة.

وهنا النقطة وهي أن التساؤلات السابقة لم تكن تساؤلات آلية وإنما جاءت نتيجة للانتباه.

وهنا نقطة أخرى وهو أنه ليس من الضروري أن تكون قادرا على الإجابة على جميع التساؤلات. فالمؤلف ليس لديه تصور واضح لسبب اختيار الله تعالى لكلمة "مطلع الشمس" بدلا من "مشرق الشمس"، وكذلك لا يوجد في ذهن المؤلف أي تصور أو احتمال لسبب اختيار لفظة "شرقيا" في آية مريم.

ولكن مجرد قيامك بحركة الانتباه والتساؤل هو أمر في غاية الفائدة؛ لأنه سيساعد على تحريك الدولاب في الدماغ بالضبط كما تحرك الدولاب عند الأعرابي عندما ينتبه ويتساءل عن سباحة الطير في الهواء. وأما الأجوبة فربما تجدها عاجلا أو آجلا أو ربما لا يجدها الناس إلا بعد قرون. وهنا النقطة الجوهرية وهي أن حركة الانتباه والتساؤل مفيدة لذاتها وأما الأجوبة فستأتي عاجلا أو آجلا.

وهنا نقطة ثالثة: وهي أنه من الطبيعي أن يأتي التساؤل بعد الانتباه ولكن عملية التساؤل ليست أمرا تلقائيا وإنما هي مرحلة جوهرية بالضبط كما أن عملية الانتباه هي مرحلة جوهرية. وفي كثير من الأحيان فإن طريقة صياغة السؤال تكون هي السبب في الانتباه. كما أن إحدى النصائح في الأدبيات الأكاديمية في حل المشكلات المستعصية هي إعادة تعريف المشكلة. وإعادة تعريف المشكلة هو نفسه عملية إعادة صياغة السؤال.

رجوعا إلى الأمثلة القرآنية السابقة فقد استطاع المؤلف أن يستنتج بعض الأجوبة لها:

فبالنسبة إلى سبب اعتراض موسى عليه السلام على بناء الحائط فإن غلبة ظن المؤلف أنه "زهق". فشخصية موسى عليه السلام وطول عمره ذلك الوقت لم تكن تسمح له بالصبر طويلا بوضعية "صبي المعلم".

وبالنسبة إلى اختلاف الجواب لزكريا ومريم عليهما السلام فإن زكريا كان نبيا شيخا فسؤاله غريب على شخص يعلم تماما قدرة الله تعالى ، فكان هناك بعض الحزم في جواب الملائكة له. وأما مريم فقد كانت صغيرة بلا خبرة في الحياة فكان جواب الرسول لها رقيقا ذا طمأنينة.

وبالنسبة إلى طلب يعقوب عليه السلام من أبنائه الدخول من أبواب متفرقة فالأمر يتعلق بحياة البادية:

فالعلاقات الاجتماعية في البادية محدودة ومباشرة ولهذا السبب فمهارات المداراة غير مرتفعة في البادية مقارنة في حياة المدينة، وذلك لعدم الحاجة إليها في

البادية. ولكن عدم وجود مهارات المداراة معناها أن ما هو موجود في القلب سيظهر وبشكل واضح على الوجه، وهنا كانت المشكلة (على غلبة الظن) عند يعقوب عليه السلام. فأولاد يعقوب كانوا قد ذهبوا في المرة الأولى إلى مصر وبشكل عادي ليتعرفوا هناك على وزير الاقتصاد (يوسف عليه السلام) وقد وصلت العلاقة بين أولاد يعقوب والوزير أنه أعطاهم البضاعة مجانا دون مقابل. وهذا شجعهم للقيام بالرحلة الثانية.

ولكن هل يستطيع القارئ أن يتخيل مشاعرهم عند ذهابهم إلى مصر في الرحلة الثانية؟

إن أولاد يعقوب عليه السلام كان عندهم الشعور اليقيني أن "عندهم واسطة قوية في الحكومة". ولهذا فمن الطبيعي أن يبدؤوا بالتصرف وبشكل غريزي (وبسبب عدم وجود مهارات المداراة) بأسلوب "يا أرض انهدي ما عليك قدي".

وعلى غلبة التخمين فإن يعقوب عليه السلام قد رآهم وأنوفهم مرفوعة وصدورهم منفوخة وأراد يعقوب أن يُبعد عن أولاده بُغض الناظرين إذا دخلوا جميعا في موكب واحد إلى المدينة فطلب منهم أن يدخلوها من أبواب متفرقة. فكما أن الشجاعة تكون مع الجماعة فإن الافتراق يخفف مشاعر الغرور.

رجوعا إلى موضوع المحاور في حركة الانتباه والتساؤل:

كان ما سبق هو شرح للمحور الأول فيه وهو الانتباه والتساؤل للموضوع. وأما المحور الثاني فهو الانتباه والتساؤل للأخطاء. وبالطبع فإن أهم مجال في هذه النقطة هو الانتباه إلى أخطائك أنت وذلك لأنك إذا لم تستطع أن تتعلم من أخطائك فإنك لن تستطيع أن تتعلم من أخطاء الآخرين.

وهناك الكثير من الأسئلة في هذا المجال ولكن أهمها التالي:

١ - لماذا أخطأت؟

٢- وما هي الآليات والمقاييس التي كنت بحاجة لها كي تمنع (أو تخفف) من حدوث هذا الخطأ؟

دعونا نضرب الأمثال من أخطاء المؤلف:

أحد أخطاء المؤلف كانت في موضوع حرب الخليج الثانية (عام١٩٩٠م). فالمؤلف (وكثير غيره) كان مقتنعا تماما أن تهديدات الحلفاء للعراق كانت مسرحية وأنه لن تكون هناك حرب. وكانت صدمة حقيقية ذلك اليوم الذي سمع فيه المؤلف أن طائرات الحلفاء بدأت تضرب بغداد.

هذا الخطأ غير بسيط. فلماذا حدث؟

الخطأ جاء نتيجة لاستخدام فلسفات تحليل لم تعد مناسبة. فنظرة المؤلف أن صدّام حسين كان مرتبطا بالغرب ولهذا السبب فإنه من المستبعد أن يقوموا هم بضربه.

والنقطة البديهية التي لم ينتبه لها المؤلف هو عندما تجد جريرا يهدد بضرب زيد، ثم تجد جريرا يمسك العصا ويهدد بضرب زيد، ثم تجد جريرا يركض باتجاه زيد وهو يهدد بضربه، فيجب عندها أخذ تهديد جرير على محمل الجد.

والنقطة التي وقع فيها المؤلف هي نفسها معضلة الفلاسفة. فالفلسفة جاءت للتعبير عن الواقع والنظر في أعماقه. ولكن في كثير من الأحيان فإن الفلاسفة يغوصون في الفلسفة إلى الدرجة التي يفقدون فيها الصلة مع الواقع. وهذا بالضبط ما حدث مع المؤلف في حرب الخليج الثانية.

وهنا يأتي السؤال الثاني: ما هي الآليات التي كان المؤلف بحاجة لها كي يضمن (قدر الإمكان) أن فلسفات التحليل التي عنده ما زالت مناسبة؟

وكانت نتيجة الإجابة على هذا التساؤل هى النقاط الثلاث الأولى في منهج التحليل السياسي (في الملحق الثاني من هذا الكتاب). فالنقاط الثلاث جاءت لعمل آلية تلقائية تقوم بعمل المؤشر لفعالية أو عدم فعالية فلسفات التحليل.

ومثال آخر هو طالبان. فقد كان المؤلف قبل حرب أفغانستان الثانية (٢٠٠٠م) على قناعة تامة أن طالبان تقوم بالمتاجرة بالأفيون. وكانت هذه القناعة بسبب ظهور هذه المعلومة في الكثير من الصحف العربية وغير العربية ودون أي نفي من طالبان. وكذلك لوجود نظرة شرعية عند بعض المسلمين في أفغانستان وباكستان تسمح بالمتاجرة بالأفيون إلى غير المسلمين.

ولكن ظهر وبشكل واضح أن طالبان كادت أن تقضي تماما على زراعة الأفيون في أفغانستان وأن المتاجرة بالأفيون إنما ازدهرت بعد دخول الحلفاء.

والسؤال الآن: لماذا أخطأ المؤلف؟

وفي واقع الحال فإن خطأ المؤلف كان أمراً لا مفر منه. فأنت لا تستطيع أن تأخذ من الصحف ما تحبه وترفض ما تكرهه دون مقاييس وقواعد وإلا فأنت تستخدم الهوى والترقيع في التحليل.

وهنا كان انتباه المؤلف للفلسفة التي تقول: من الأفضل أن تكون مخطئا في الرأي ولكن في الطريق الصحيح بدلا من أن تكون مصيبا في الرأي ولكن في الطريق الخطأ؛ وذلك لأن الطريق الصحيح سيقوم مع الزمن بتعديل الرأي نحو الصحيح أيا كان ذلك الصحيح.

وكذلك كان انتباه المؤلف لنظرة الاحتمالات وهي النقطة الرابعة في منهج التحليل السياسي. فخطأ المؤلف الحقيقي لم يكن في الاقتناع وإنما كان في الاقتناع التام بأن طالبان تتاجر بالأفيون.

وكان نتيجة هذه التساؤلات هو تغير كامل في لغة التفكير والتعبير عند المؤلف. فتعبيرات المؤلف قبل تحليل الخطأ كانت:

- قناعتي في الموضوع هو كذا.
- الدولة الفلانية هدفها كذا.
- الرئيس الفلاني قام بكذا.

أما بعد تحليل الخطأ السابق فقد أصبحت:

- غلبة الظن هو كذا.
- غلبة التخمين هو كذا.
- هناك أقوال أن كذا هو كذا.
- هناك إشاعات أن كذا هو كذا.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن استخدام نظرة الاحتمالات في عملية التحليل السياسي ستقوم بالكشف عن مكر الصحافة أو على الأقل التخفيف من حدة الأخطاء الناتجة عنها.

المحور الثالث في حركة الانتباه والتساؤل هو الكيفية بيتا:

الكيفية ألفا هي مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالموضوع مثل: كيف تقوم بهذا الشيء (How to do)، مثال ذلك هو السؤال عن الكيفية والخطوات التي تجعل الشخص متقنا للعبة الشطرنج.

وأما **الكيفية بيتا** فهي مجموعة مختلفة من الأسئلة تتعلق بالكيفية التي استطاع بها فلان من الانتباه أول مرة إلى الفكرة. مثال ذلك هو السؤال: كيف استطاع هانيبال من الانتباه إلى الخطة في معركة "كان"؟ وما هي خطوات التفكير في دماغه والتي أنتجت هذه الخطة؟

انتبه هنا... الكيفية ألفا تساعد على خلق المحترفين أما الكيفية بيتا فهي تساعد على خلق المبدعين، وذلك لأن الكيفية بيتا تبحث عن الطريقة في التفكير والتي استخدمها المبدعون في الانتباه إلى أفكارهم أول مرة.

وهذه المجموعة من الأسئلة في الكيفية بيتا ليست مقتصرة على التحليل السياسي وإنما هي مفيدة جدا في كل مجال وفن. فمن المفيد جدا التساؤل عن الطريقة التي انتبه بها أرشميدس أول مرة إلى قانون حجم الكرة. ومن المفيد جدا التساؤل عن الطريقة التي انتبه بها نيوتن أول مرة إلى قانون الجاذبية.

دعونا نضرب الأمثلة:

كيف استطاع هانيبال أن ينتبه لهذه الخطة العبقرية في معركة كان (Cannae)؟

دعونا أولا ندرس معركة كان:

كان جيش قرطاجة ٤٠ ألفا في حين كان جيش روما ٨٠ ألفا. ولكن كان هانيبال متفوقا في سلاح الخيالة.

وهنا سؤال اعتراضي:

قـوة روما إلى قرطاجة كانـت ٢ إلى ١ وقد حدثت معارك كثيرة قبل هذه المعركة وكانت قوة العدو أكبر من الجيش بنسبة ٥ إلى ١ كمعركة جاوجاميلا (Gau gamela) بين الإسكندر والفرس. فما هو الأمر المميز في معركة كان والذي جعلها الأكثر شهرة؟

هناك ميزتان في معركة كان وهي أن الجيش الروماني في ذلك الوقت كان في غاية الانضباط وهذا ما يجعل تكتيكات هانيبال في غاية التميز. والأمر الثاني هو أن هذه المعركة كانت المعركة الأولى في التاريخ والذي استطاع فيها جيش أن يحيط بكامل عدوه ويدمره تماما دون مطاردة. فقد كانت خسائر الرومان حوالي ٧٠ ألفا.

وكان هانيبال متفوقا بسلاح الخيالة ولهذا فمن الطبيعي الاستنتاج أن هانيبال قد قرر استخدام هذا السلاح للإحاطة بالعدو. ولكنه بحاجة إلى أمرين:

١. بحاجة إلى وقت كاف كي تستطيع الخيالة عند هانيبال من أن تناوش وتشتبك وتحطم الخيالة عند العدو.

٢. بحاجة إلى فصل خيالة العدو عن المشاة.

هذه الفكرة بسيطة ومنطقية. الآن دعونا ندرس الخطة:

قام الرومان حسب عادتهم بتقسيم الجيش إلى وسط مشاة وجناحين من الخيالة واحتياط. أما هانيبال فقد وضع من سلاح الخيالة العدد الكافي في جناحه الأيمن

كي يقوم بتثبيت جناح العدو المقابل. ووضع الباقي في جناحه الأيسر. ثم قام بفرد المشاة عنده على شكل قوس عميق ممتد باتجاه الرومان. ووضع على طرفي القوس من الخلف وحدتين من المشاة الثقيلة.

ما هو الهدف من شكل القوس؟؟؟

لم يكن عند الرومان أي خبرة سابقة في هذا التشكيل. وقد نظر الرومان باستغراب وسخرية إلى تشكيل هانيبال، فقد كان القوس في غاية النحافة إلى درجة أنهم لم يصدقوا ما يرونه. وتقدم وسط الرومان باتجاه القوس.

ولكن هناك نقطة: وهي أنه إذا اندفع الرومان باتجاه القوس فإن صفوفهم ستنشق إذ إنهم إذا اندفعوا نحو القوس فإن هذا سيؤدي إلى أن يكون طرفا صفوفهم في نقطة أعمق من وسط الصف، وهذا قد يؤدي إلى انشقاق الصف نفسه عند الاندفاع. وحيث إن هذه هي أول مرة يرون فيها هذا التشكيل ولم يتدربوا على تكتيكات مضادة له فقد قرروا التقدم ببطء. وهذا ما أراده هانيبال، فقد أراد وقتا كافيًا.

وكلما تلامس الصف الروماني مع القوس فإن القوس كان يناوش ثم يتراجع. وهذا أعطى للرومان الإحساس بالانتصار (خديعة طباع). وازداد التقدم حتى انعكس القوس من شكله المحدب إلى المقعر. وتكدس الرومان داخله. وهنا انقضت وحدة المشاة الثقيلة باتجاه طرفي القوس مما أدى إلى فصل خيالة العدو عن الوسط و إلى إشغال وحدات الاحتياط. وهذه كانت الخطوة الثانية التي أرادها هانيبال. والمعركة بعد ذلك أصبحت تلقائية فقد استطاعت الخيالة تحطيم الجناح الأيمن للعدو لينقض بعدها على الخطوط الخلفية للوسط الروماني.

وبالطبع فإن هناك عبقرية أخرى لهانيبال. فإن جيش هانيبال كان خليطا من قرطاج وأسبان وفرنسيين وطليان وكانت المهارة الحقيقية لهانيبال هى خلق الانضباط والإرادة في هذا الخليط، وخصوصا في القوس لأن القوس كانت نقطة الضعف عند هانيبال، فقد كان من الضروري أن يتراجع القوس دون أن ينشق

ودون أن ينهار الانضباط ودون أن يشعر الرومان بالريبة. وهنا كانت عبقرية هانيبال القيادية.

والسؤال التالي الآن: كيف جاءت فكرة القوس إلى هانيبال؟

بالطبع لا يوجد جواب صريح لهذا السؤال ولكن من النظر إلى التاريخ فإنه من الممكن التخمين. وضمن تخمين المؤلف فإن فكرة القوس كانت تطويرا لتكتيك استخدمه والده (هاملكار بركة) في إحدى معاركه مع الأسبان. ففي إحدى المعارك كانت قوة هاملكار صغيرة جدا لقوة العدو فقام بالمبادأة بالهجوم على شكل قوس مقعر (أي أن اندفاع الوسط كان متخلفا عن اندفاع الجناحين). وكان هذا التكتيك جديدا جدا على الأسبان وترددوا بالهجوم خوفا من انشقاق الصفوف وارتبكت قيادة العدو لوقت كان كافيًا لهملكار للاستدارة بجناحيه لضرب الخطوط الخلفية للعدو.

وضمن معلومات المؤلف فإن تكتيك هانيبال (إرباك قيادة العدو بتشكيل هندسي) قد تم استخدامه في التاريخ عدة مرات:

استخدمه هاملكار بركة ضد الأسبان. ثم استخدمه هانيبال ضد الرومان في معركة كان. ثم قام سيبون الأفريقي (قائد روماني نجا من معركة كان) بتطوير تكتيك القوس إلى حركة الأجنحة المائلة واستخدمه في معركة ليبا (Llipa) ضد القرطاجيين في أسبانيا.

وهذه الفكرة قريبة جدا لتكتيك هاملكار، فقد هجم سيبون بأجنحة مائلة (وتكتيكات أخرى). وهذا أربك العدو إلى الدرجة الكافية لقيام سيبون بالوصول إلى طرفي الجيش والاستدارة لضرب الخطوط الخلفية. وقد قام فريدريك الأكبر (Frederick The Great) بدراسة فعالية الأجنحة المائلة في خطة سيبون وطبقها في حروبه .

وفي معركة العلمين بين الألمان والإنجليز عام ١٩٤٢. استطاع الإنجليز شق ثغرة في قوة الألمان واضطر الألمان إلى الانسحاب. وقد حاول الإنجليز الاندفاع

للإحاطة بالألمان ولكن استطاع الألمان التخفيف من سرعة اندفاع الإنجليز بتكتيكات كان منها ألاعيب الألغام. فقد قام الألمان بوضع الخردة في الصفوف الأمامية في حقول الألغام ثم وضعوا بعض الألغام في صفوف تالية ثم الخردة وهكذا. وكان هذا التكتيك جديدا على الساحة وقتها.

وقام سلاح الهندسة الإنجليزي باستخراج الألغام ليكتشفوا أنها خردة وعندما تكرر هذا الأمر فقد ظن الإنجليز أن الحقل كله خردة فاستعجل الإنجليز أمرهم وقاموا بالاندفاع لتتعطل مدرعاتهم. وعندها يأتي سلاح الهندسة لاستخراج الألغام ليكتشفوا أنها خردة وليتكرر خطأ الإنجليز بالاستعجال ليقعوا في صف ألغام آخر. فكانت حركة الإنجليز هي استعجال ثم تعطل وارتباك. وهذا قد أعطى الألمان الوقت الكافي للإفلات.

والسؤال الآن: هل هذا بالضبط ما حدث في دماغ هانيبال؟

بالطبع لا يوجد يقين وإنما ما سبق هو أفضل الاحتمالات المتوفرة ضمن نظرة المؤلف إلى التاريخ. ولكن حتى وإن ثبت لاحقا أن هذا التحليل كان خاطئا إلا أنه مفيد. فمحاولة البحث عن الكيفية التي فكر فيها هانيبال معناها هو محاولة التعمق بشكل حقيقي في التاريخ والتعمق بشكل حقيقي في دراسة التكتيك. وهذه محاولة مفيدة.

وهنا هي الفائدة الحقيقية من الكيفية بيتا. وهي أنك تبحث عن الكيفية التي قام بها القادة المبدعون بالتفكير. وهذا سيؤدي وبشكل غريزي إلى تطوير طريقة التفكير عندك. وهذه هي الجائزة الكبرى من الكيفية بيتا.

دعونا نضرب مثلا آخر عن الكيفية بيتا وليكن في موضوع الفيزياء: كيف استطاع نيوتن أن ينتبه إلى قانون الجاذبية؟

الشائعة تقول إن نيوتن قد سأله أحدهم عن الكيفية التي استطاع بها أن ينتبه إلى قانون الجاذبية فأجابه: من سقوط التفاحة.

وقد أصبحت النظرة لاحقا أن نيوتن كان سائرا في الريف فسقطت عليه تفاحة فانتبه إلى قانون الجاذبية. وهذا مستبعد تماما حيث إنه لا توجد علاقة مباشرة تربط سقوط التفاحة مع قانون الجاذبية. وضمن غلبة تخمين المؤلف فإن التحليل التالي هو الأقرب إلى المنطق:

وضع كوبرنيكوس (١٥٤٣م) نظريته أن الكواكب لا تدور حول الأرض وإنما تدور حول الشمس. ومن ذلك الوقت وحتى ظهور نيوتن فقد كانت هناك معضلة حقيقية للعلماء وهي لماذا الشمس؟ لماذا تدور الكواكب حول الشمس وما هو الشيء المميز في الشمس كي تدور الكواكب حوله. ولتعقيد هذه المعضلة فإنه كان هناك سؤال آخر وهو لماذا القمر؟ لماذا تدور الكواكب حول الشمس في حين يدور القمر حول الأرض؟؟؟

هذه كـــانت المعضلة الحقيقية للعلماء منذ أن وضع كوبرنيكوس نظريته.

وضمن غلبة التخمين فقد كان نيوتن في الريف وبيده تفاحة يأكلها وبعد أن انتهى منها رمى باقيها (وبشكل اعتيادي) نحو الأفق وسقطت إلى الأرض. وهنا كانت نقطة الانتباه:

لقد رمى التفاحة وسقطت بعد مسافة ولكنه لو رماها بقوة أكبر فسوف تسقط على مسافة أبعد. ولو رماها بقوة أكبر وأكبر فإن التفاحة ستسقط على مسافة أبعد وأبعد. ولكن إلى متى؟؟

وهذا كان مفتاح الحل. وقد قام نيوتن برسم مخطط في أحد المقالات على شكل كرة الأرض وعلى أحد أطرافها جبل كبير. وفي هذا الرسم قام نيوتن بالتوضيح أنه إذا تم رمي الحجر من على رأس الجبل وبقوة كافية فإن المنطق يقول إن الحجر يجب أن يرجع إلى يدك من الجهة الأخرى.

وهنا انتبه نيوتن إلى حل المعضلة وهو أن القمر يقوم في الواقع بالسقوط إلى الأرض ولكنه سقوط خاص حيث إن له السرعة الكافية كي يعود إلى نفس النقطة

التي بدأ منها. وكذلك الكواكب فإنهم يسقطون إلى الشمس ولكن بسبب سرعتهم فإنهم يعودون إلى نفس النقطة التي بدءوا منها.

وقبل انتباه نيوتن لقانون الجاذبية فقد كانت العلاقة بين قوة الجذب والمسافة والكتلة معروفة في ظاهرة الجذب المغناطيسي. ولهذا السبب فقد كان يسيرا أن يقوم نيوتن بالإجابة على المعضلة الكبرى ذلك الوقت. لماذا الشمس: لأنه الأضخم كتلة. ولماذا القمر: لأنه الأقرب إلى الأرض. وقد كان هذا كافيًا لنيوتن، وباستخدام حساب المثلثات وقوانين كبلر في حركة القمر، كي يستنتج قانون الجاذبية وهو الذي فتح بابا عريضا في علم الفيزياء.

وهنا دعوة من المؤلف إلى تغيير طريقة دراسة وتدريس الرياضيات والفيزياء. فالطريقة الحالية في دراسة الرياضيات والفيزياء تكون بالتركيز على الموضوع. وهذا الأسلوب في الدراسة غير مريح وباعث للضجر. وحتى المؤلفات في تاريخ الرياضيات الحالية فإنها لا تقوم بالتركيز على الكيفية بيتا وإنما تقوم بسرد القصة التاريخية وهو أمر ليس شديد الفائدة. ودعوة المؤلف هنا هي دراسة الرياضيات وتدريسها باستخدام الكيفية بيتا. وفي دراسة الكيفية بيتا فأنت تقوم وبشكل أساسي بدراسة طريقة التفكير التي أدت إلى التوصل إلى الفكرة أول مرة. وهذا ما يجعل دراسة الرياضيات أكثر متعة، وهذا ما يدفع إلى خلق المبدعين فيها.

ما سبق كان تحليلا للمحاور الثلاث في حركة الانتباه والتساؤل. وللتذكير فهذه المحاور هي:

١. الانتباه والتساؤل عن الموضوع.

٢. الانتباه والتساؤل عن الأخطاء.

٣. الانتباه والتساؤل عن الكيفية بيتا.

وهناك ثلاث نقاط فرعية في موضوع حركة الانتباه والتساؤل من الضروري التعرض لها:

* الصدق والأمانة مع النفس.
* وثقافة الاستهزاء.
* وعضلة الانتباه.

الصدق والأمانة مع النفس:

هناك الكثير من الناس من لا يكون صادقا مع نفسه. وهؤلاء من يقومون بترقيع القواعد والمقاييس وفلسفة الأمور كي تتفق مع مصالحهم وأهوائهم. كمثال لنفترض أن شخصا كان يكره جريرًا. ولنفترض أن جريرا قد قام بعمل خاطئ، وعندها من الطبيعي أن يقوم هذا الشخص بانتقاد جرير. ولكن لنفترض الآن أن هذا الشخص يحب زيدا وأن زيدا قد قام بنفس العمل الخاطئ.

في هذه الحالة فإن البعض من الناس من سيقوم بخلق التبريرات لزيد وانتقاد جرير في الوقت نفسه. وهذا العمل هو مثال لعدم الصدق والأمانة مع النفس ومحاولة فلسفة الأمور لتتفق مع الهوى.

انتبه أن هذا الأمر في كثير من الأحيان لا يكون متعمدا وإنما هو جزء من السلوكيات غير الواعية.

المشكلة في عملية الترقيع المزاجي للمقاييس أنها تقوم بإعاقة تطوير المهارات. وهذا بالضبط ما يحدث عندما تكون المساطر وأدوات القياس في المصنع متغيرة حسب المزاج فإن هذا سيؤدي إلى انهيار الكفاءة والجودة في منتجات هذا المصنع.

ثقافة الاستهزاء وسرعة الاتهام والشتيمة:

توجد نظرة عند المؤلف وهو أن هناك علاقة واضحة بين الحماقة وثقافة الاستهزاء.

لنرجع إلى المثال السابق المتعلق برسالة الوزير والخطأ في "إنّ وإنّا".

الآن... إذا كان الوالي سريع الاستهزاء والشتيمة فإن أغلب الظن أنه سينتبه إلى الخطأ في التشكيل ولكن ربما سيكون تعليقه (بالعامي): "شوف هالـ ... مش عارف يحط التشكيل صح".

وبالطبع فإنه في اللحظة التي يقوم فيها بالشتيمة فإن مرحلة التساؤل قد تم تجاوزها. وهذا ما تفعله ثقافة الاستهزاء فإنها تقوم بتجاوز مرحلة التساؤل وتصبح الحركة هي حركة انتباه وشتيمة. ولهذا السبب فإن المؤلف لا يثق بحكمة الشخص سريع الاستهزاء والشتيمة. ومهما كان هذا الشخص ذكيا في غرفة الامتحانات فإنه لن يتصرف بحكمة خارجها. والسبب هو أن دماغ هذا الشخص سيكون مستعدا وجاهزا في غرفة الامتحانات، أما في الحياة فإن الاستهزاء والشتيمة سيبقيان أسرع من مرحلة التساؤل ولهذا فمواقفه ستبقى في الحياة غير حكيمة.

عضلة الانتباه:

عضلة الانتباه ليست كعضلة اليد. فأنت تستطيع أن تقوم بإرخاء اليد أو شدها. ولكنك لا تستطيع شد عضلة الانتباه أو إرخاءها. فعضلة الانتباه هي عضلة غير إرادية. فأنت لا تستطيع أن تفتح الكتاب أو القرآن وتقرر أنك ستنتبه إلى المعاني بين السطور. وإنما الانتباه يأتي فجأة ودون استئذان أو ميعاد.

وهنا السؤال: كيف نستطيع أن نقوي عضلة الانتباه؟؟

والجواب هو بالتوقف والتمعن في الأمثلة والتاريخ:

عندما يقرأ الشخص أن المفسرين قد استنبطوا معنى كلمة "أبّا" في قول الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس]، بأن الفاكهة لنا والأب هي للأنعام. وعندما يتوقف ويتمعن هذا الشخص بهذا المثال فسينتبه أن الطريقة التي قام بها المفسرون بهذا الاستنباط هي المقارنة. وعندما يقوم هذا الشخص بالتوقف والتمعن في الأمثلة الأخرى والانتباه لها فهو في الواقع يقوم بتقوية عضلة الانتباه عنده.

وهنا يأتي السؤال التالي: ما المقصود بالتوقف والتمعن؟

المقصود هو استخدام أسئلة الكيفية بيتا السابق شرحها. فأنت في حقيقة الأمر تريد أن تعرف كيف انتبه الآخرون إلى المشاكل والحلول. وعندما تستخدم الكيفية بيتا في الكثير من الأمثلة فأنت في حقيقة الأمر تقوم بترويض العقل على نفس الكيفية. وهذا هو المقصود بتقوية عضلة الانتباه.

بالطبع فإنه بالإمكان تصميم ألعاب ذهنية وإدارية واستراتيجية لتقوية عضلة الانتباه وكثير من هذه الألعاب في غاية الفائدة. ولكن مجال الألعاب يبقى محدودا ومجال التاريخ غير محدود. ولهذا السبب فإن الأساس في تقوية عضلة الانتباه يبقى هو التوقف والتمعن في الأمثلة والتاريخ.

دعونا نرجع الآن إلى البداية. فقد قال المؤلف إن طريقة القراءة الجماعية لهذا الكتاب يكون بقراءة الفقرة (أو الصفحة) ومناقشتها وضرب الأمثال لأفكارها.

والهدف من القراءة الجماعية هو التخفيف من سرعة تجاوز الأفكار. وأما الهدف من المناقشة فهو الانتباه والتساؤل للأفكار. وهنا يأتي السؤال التالي : ما هو الهدف من ضرب الأمثال؟

إن الفهم لقواعد السباحة لا يعني القدرة على السباحة. فالشخص بحاجة إلى الممارسة كي يستطيع تحويل القواعد والأفكار إلى مهارة وتحويل الفهم إلى مفهوم. وهذه هي النقطة: فكي يقوم الشخص بتحويل الفكرة إلى مهارة فهو بحاجة إلى الممارسة والتطبيق.

ولكن ليس من السهل ممارسة وتطبيق الأفكار السياسية والاستراتيجية. فكان أفضل الحلول المتوفرة لمحاولة تحويل الأفكار السياسية والاستراتيجية إلى مهارة ومفاهيم هو ضرب الأمثلة.

والمطلوب هو أن تحاول (قدر الإمكان) أن تجد الأمثلة للفكرة من معلوماتك

الخاصة وخبراتك ومعرفتك بخبرة الآخرين. وكلما استطعت أن تضرب أمثلة أكثر كلما ازداد وضوح الفكرة في الذهن.

ولكن انتبه...ليس المثال هو الذي يقوم بترسيخ الفكرة وإنما تترسخ الفكرة بمحاولة استخراج الأمثلة من الدماغ. وإذا كانت هناك فكرة وحاولت عصر الذهن لاستخراج المثال ولم تستطع فلا بأس، فلم يذهب هذا الجهد سدى. فإن محاولاتك باستعراض الأمثلة في الذهن هى فى حد ذاتها الوسيلة لترسيخ الفكرة في الذهن. فالهدف من استخراج الأمثلة ليس الأمثلة نفسها وإنما الهدف هو عملية الاستخراج. أي أن الفائدة من التمرين ليست النتيجة وإنما الفائدة من التمرين هى التمرين نفسه.

وهناك نقطة أخرى ضرورية وهي الأمثلة المضادة. وهذا الموضوع قد انتبه له المؤلف في أحد كتب البرمجة العصبية لأندرياس (Steve Andreas):

معظم الأفكار في عالم السياسة والاستراتيجية والإدارة هي أفكار ظنية وليست يقينية. وإنه لمن الخطأ الشديد الاعتقاد (بشكل واع أو غير واع) بهذه الأفكار الظنية؛ لأن هذا معناه أنه لن يكون هناك الانتباه الكافي للقصور والاستثناءات في هذه الأفكار.

لنضرب المثال: لنفترض أنك اقتنعت أن برودة الأعصاب ضرورية لنهضة المجتمع.

الآن ... هذه الفكرة صحيحة ولكنها ليست دائما صحيحة، فإن الرسول عليه السلام كان هادئ الأعصاب في معظم تصرفاته ولكنه في بعض المواقف كان شديد الغضب. ولهذا السبب فإن هدوء الأعصاب هو الأفضل في معظم المواقف ولكن ليس في جميعها.

وكذلك في وقت المعركة. فأنت تريد من قادة الجيش أن يكونوا باردي الأعصاب ولكنك لا تريد من الجنود في الصف الأول في المعركة أن يكونوا باردي الأعصاب وإنما العكس تماما.

وهذه هي النقطة. فإن معظم الأفكار في الفلسفة والسياسة هي أفكار غلب عليها الظن. ويجب أن تبقى داخل دائرة الأفكار الظنية ومن الخطأ أن تنتقل هذه الأفكار إلى دائرة الاعتقاد واليقين.

وهنا يأتي موضوع الأمثال المضادة. فإنه من المناسب أن تقوم بوضع بعض الأمثلة المضادة للأفكار التي تقتنع بها. إذ إن هذا سيكون تنبيها للعقل الباطن أن هذه الفكرة هي غلبة ظن وليست يقينًا. وهذا هو المطلوب.

كان ما سبق هو شرح لمنهج قراءة الكتب الفلسفية العملية. وبالطبع فإن الكثير من المناهج هي خطوط عريضة. وكذلك هذا المنهج، فالقواعد التي تم ذكرها في هذه المقالة هي خطوط عريضة. ومن الناحية الواقعية فإن قراءة جميع فصول هذا الكتاب بشكل جماعي قد لا يكون عمليا حيث إن هذا الأمر قد يستغرق شهورًا طويلة. كما أنه ليس من السهل على القارئ أن يستخرج الأمثلة والأمثلة المضادة لجميع الأفكار في هذا الكتاب. كما أنه ليس من السهل مناقشة كل فقرة في هذا الكتاب.

ولهذا السبب فإن هذا المنهج هو خطوط عريضة. وقد يكون من الحكمة قراءة بعض الفصول جماعيا لتقوية الانتباه. ومن المفيد بين الفينة والأخرى القيام باستخراج الأمثلة للأفكار الأساسية. ولكن هذا كله يبقى مقيدا ضمن حدود الوقت والظرف والإمكانيات .

ويأمل المؤلف الآن في أن يكون القارئ قد أدرك أهداف هذه المقالة. فالمؤلف يهدف إلى تحقيق ثلاثة أمور:

١. أن يقوم القارئ بتكوين أفكار واضحة عن الموقف السياسي والنظرات الاستراتيجية، بغض النظر إن كانت هذه الأفكار موافقة لمحتوى هذا الكتاب أو مخالفة له.

٢. أن يقوم القارئ وبشكل غريزي ومستمر باستخدام حركة الانتباه والتساؤل.

٣. أن ينتبه القارئ إلى أهمية الصدق والأمانة في التعامل مع القواعد والمقاييس.

وإذا تحققت هذه الأمور فإن الزمن كفيل بتعديل أفكار القارئ (مهما كانت) نحو الصحيح أيا كان هذا الصحيح. وهذا هو الهدف الحقيقي من هذا الكتاب.